الفصل الأول

التعريف بالنظم وبيان أهميتها

(المبحث الأول : مفهوم النظم)

أولا : النظم في مفهوم اللغة

نحن لا نملك إزاء معرفة مدلوله اللغوي إلا أن نرجع إلى قواميس اللغة نستوضحها ونسترشد بها فيما تشير إليه وفيما تدور عليه، وفي هذا المجال نجد ابن منظور صاحب لسان العرب يقول في مادة نظم : (النظم تعني التأليف، نظمت الوُلؤ أي جمعته في السلك ومنه نظمت الشعر، فكل شيء قرنته بأخر أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمته). ويقال في معجم الوسيط : (النظام : الترتيب والإتساق)، ويقال : (نظام الأمر أي قوامه وعماده).

وعلى هذا فالمعاني التي تفيدها مادة نظم تدور حول : الجمع والإقتران والترتيب والتأليف والإتساق.

ثانيا : النظم في مفهوم الاصطلاح

من الأمور البديهية أن الإنسان وحده لا يستطيع أن يحيا وهو بمفرده، ومن ثم فهو محتاج إلى غيره من بني جنسه لاستكمال ما به يحيا، ومن هنا تظهر ضرورة اجتماع الناس وتعاونهم تحت رعاية دول ومنتجعات أو قبائل وشعوب، قال تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير) .

ومن الأمور البديهية أيضا أن أهواء الناس مختلفة ونزاعاتهم متباينة الأمر الذي يؤدي إلى التعارض والتصادم ما لم يكن هناك قانون عام يلتزم به الجميع، هذه القوانين العامة والقواعد والمبادئ هي ما يطلق عليه الباحثون مصطلح النظم.

ثم إن النظم باعتبار مصادرها تنقسم إلى قسمين :

١) مفهوم النظم الوضعية :

- قال الأستاذ الدكتور عمر عودة : (النظم هي ما اصطلح عليه المجتمع من أوضاع لتنظيم ما يسود الأفراد من علائق شتى شؤون حياتهم التزاما بها وخضوعا لها).
- ويرى جلدنر : (أن النظم هي الطرق المقننة لحل مشكلات المجتمع).

فالأسرة - مثلا - باعتبارها من النظم الإجتماعي لا يمكن أن تدرس بمعزل عن النظم الأخرى التي تؤثر فيها، والتي قد تحددت مستقبل نموها كالنظم الخلقية والنظم الإقتصادية والنظم السياسية وغيرها، ولذلك فإدراك العلاقات المتبادلة لجميع النظم أمر جوهري لفهم الحياة الإجتماعية.

٢) مفهوم النظم الإسلامية :

تتصل النظم بالدين الإسلامي اتصالا وثيقا فضلا من حيث اللغة، فبينهما علاقة لغوية وثيقة، فكلمة الدين في اللغة

تمثل في ذهن العربي تصورات أربعة أساسيات :

- ١- القهر والغلبة من ذي سلطة عليا
- ٢- الإطاعة والتعبد والعبودية من قبل خاضع لذي السلطة -٣
- المحاسبة والقضاء والجزاء والعقاب
- ٤- الحدود والقوانين والطريقة التي تتبع

وكانت العرب تستعمل هذه الكلمة قبل الإسلام بهذا المعنى تارة أخرى حسب لغاتهم المختلفة، إلا أنهم لما لم تكن تصوراتهم لتلك الأمور الأربعة واضحة جلية حتى نزل القرآن الكريم فوجد هذه الكلمة ملائمة لأغراضه، فنحن نرى أن كلمة (الدين) في القرآن الكريم تقوم مقام نظام بأكمله، يتركب من أجزاء أربعة وهي فيما يلي :

- ١- الحاكمية والسلطة العليا، قال تعالى : (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين، وأمرت لأن أكون أول المسلمين)
- ٢- الإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر)
- ٣- المكافأة التي تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له، قال تعالى : (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله)
- ٤- النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية، قال تعالى : (لكم دينكم ولي دين)

وعلى ضوء ما قدمنا من الممكن أن نقول : (النظم الإسلامية هي القواعد والقوانين والحدود الإلهية التي شرعها الله تعالى للإنسان لتوقده إلى السعادة في كل المجالات ومختلف العلاقات في الحياة وبعد الممات).

(المبحث الثاني : نشأة النظم)

أولا : نشأة النظم الوضعية

يصور لنا بعض المتخصصين في علم المجتمع هذه القضية فيقول :
(لقد نشأت النظم الإجتماعية من خلال اجتماع الأفراد، وتبادل أفكارهم، واتحاد مصالحهم بصفة تلقائية، فظهرت قواعد خاصة لتحقيق دوافعهم الإجتماعية وحاجاتهم الضرورية وأهدافهم المشتركة، وسرعان ما ترسبت هذه القواعد في بنية المجتمع وتركيبه، ويكتب لها الإستقرار النسبي، وتتفاعل بها مشاعر الأفراد، هذه القواعد والأوضاع والقوالب العامة هي ما نسميه بالنظم الإجتماعية).

وقد تعددت النظريات حول تكوين المجتمع البشري ونشأته، منها :
١- أن أساس الجماعة كان يقوم على صلة روحية تجمع أفرادها على تقديس شيء مشترك، تعتقد أنها نسلت منه، يسمى : التوتم، حيث كانت صلة الإنسان في ذلك الوقت تقوم على القوة فكانت الجماعات هي التي تنشئ الحق وتحميه وهي الحكم في كل خصومة لكل نزاع، وكان القوي هو صاحب الحق في كل مجال بالغبلة والقهر.
٢- أن هذا الأساس هو القبيلة أو الأسرة الأمية - التي تنسب إلى الأم - حيث كانت النساء مشاعا للرجال، والولد لا ينسب لغير أمه.
٣- أن الأساس هو الأسرة، حيث كانت الأسرة التي تتألف من زوجين وأولاد، ويكون الأب هو صاحب السلطة فيها وينسب الأولاد إليه، وهي أساس الوحدة الإجتماعية الأولى ومنها تكون المجتمع البشري على ظهر الأرض.

ثانيا : نشأة النظم في التصور الإسلامي

١(الإنسان الأول والنظم

ترتبط النظم بوجودها بوجود المجتمع، والإنسان هو أساس المجتمع، وأول الإنسان الذي خلقه الله تعالى هو سيدنا آدم - عليه السلام - حيث قال الله تعالى في كتابه الكريم : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة). ثم إذا أردنا أن نعرف بداية المجتمع فإن الله تعالى قد ذكر أن المجتمع الإنساني بدأ برجل وامرأة هما سيدنا آدم وسيدتنا حواء حيث قال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا). وقد توضح هذه الآية أن ذرية سيدنا آدم - عليه السلام - وسيدتنا حواء تكاثرت منها وتطورت إلى شعوب وقبائل، وذلك كما ورد في قوله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير).

ومما سبق يقرر القرآن الكريم الحقائق التالية فيما يخص نشأة الإنسان وبداية المجتمعات :
١- أن سيدنا آدم - عليه السلام - هو الإنسان الأول الذي خلقه الله تعالى للإستخلاف في الأرض وعمارتها بمنهج العبادة لله

٢- أنه تعالى خلق له زوجة حواء من نفسه لتكون المودة والرحمة والسكن بينهما أتم وأشمل وأعم، وبذلك كانت النواة للأسرة الأولى ومنذ هذه اللحظة بدأت الأسرة الأولى في التكاثر والتناسل، ثم أعلن الله تعالى سيدنا آدم أن التشريع والقوانين هو ما كان من عند الله تعالى لا شريك له، وذلك في قوله تعالى : (فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). فظهرت صورة النظام والقانون الإلهي في حياة سيدنا آدم من خلال مفردات القانون والتي تمثل في المأمورات والمحظورات، ومن جملة القوانين الإلهية التي أوحاها الله تعالى إليه - عليه السلام - لتنظيم حياته ما جاء في قول الله تعالى : (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى)، وهكذا فخصائص النظم كانت واضحة في حياة الإنسان منذ الأسرة الأولى، وإلى هذا تشير كلمة (هدى) التي تعيد النظام كما سبق في معنى اللغوي للنظم.

٢(معالم النظم في حياة سيدنا آدم وأسرته

وذلك من خلال حقائق القرآنية على النحو التالي :

- ١- أن الأسرة كما رأينا هي الخلية الأولى للمجتمع الإنساني
- ٢- أن هذه الأسرة كانت أسرة أبوية، والقيادة فيها كانت للزوج سيدنا آدم، وإليه توجه الخطاب إليه - عليه السلام
- ٣- علم الله تعالى سيدنا آدم معنى القانون والنظام وما يترتب على الطاعة والمعصية والفرق بينهما
- ٤- علم الله سيدنا آدم أمورا كثيرة ومعاني متعددة لا يمكن حصرها من الجنة والنار، الخلود والتأقيت، الكفر والتسليم، المعصية والطاعة وغير ذلك
- ٥- أن تشريع الزواج كان موجودا ولكن ليس بكل النساء، وأن بعض النساء كن محرمات على بعض الرجال
- ٦- أن الزواج بدأ برجل وامرأة واحدة دون تعدد مطلقا -٧
- تحریم القتل
- ٨- دفن الإنسان شرع من أول وجود الإنسان وموت أول إنسان على الأرض
- ٩- الصفات الأخلاقية، التقوى وخوف الله، والمعصية والإثم، والظلم والإعتداء، وجزاء ارتكاب المعاصي
- ١٠- اليوم الآخر والحساب والجنة والنار

٢(النظم في حياة ذرية سيدنا آدم - عليه السلام

رافقت النظم ذرية سيدنا آدم من بعده في كل زمان ومكان، وهذا ما يوضحه القرآن الكريم من خلال الحقائق التي تتصل بنشأة المجتمعات الإنسانية :

الحقيقة الأولى : إرسال الرسل

قال الله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة)، هذه الآية تقرر أن الله تعالى قد بعث في كل أمة من الناس

رسولا، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ومطبقين للنظم الإلهية في حياة المجتمعات الإنسانية.

الحقيقة الثانية : إنزال الكتب

جاء الهدى الإلهي المشار إليه في قوله تعالى : (فإما يأتينكم مني هدى)، لينظم جوانب الحياة الإنسانية من خلال الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله، يقول تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده).

المبحث الثالث : أهمية النظم الإسلامية

النظام في حياة الإنسانية أمر ضروري لوجودها، وعامل أساسي لنموها واستقرارها، فلا يمكن أن تستقيم الحياة بدون نظام يحكمه، وقانون يوجهه إلى الطريق الصحيح، والإنسان مدني بطبعه لا بد له من الاجتماع مع بني جنسه، ولا يتم له تحقيق حاجاته ومتطلباته المادية والنفسية إلا في ظل مجتمع من بني جنسه، فطعامه وشرابه ومسكنه كل ذلك لا يمكن أن يقوم به وحده، وهذا كما ورد في القرآن الكريم حيث قال تعالى : (أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون○)، قال بعض المفسرين : " أي ليرتفق بعضهم بعمل بعض وينتفع بعمله ولا تحصل هذه المنفعة وهذا التسخير إلا بالاجتماع ... "

وقد تعاهد الخالق العظيم عباده بالتشريعات المناسبة لهم في كل رسالة من الرسائل السماوية، وختم تلك الشرائع بشريعة سيدنا محمد ﷺ، وفيما يلي بيان ذلك :

أولا : أهمية النظم في الكون والحياة

هذا وقد ورد في سورة يس ما يبين أهمية النظام، وأن الكون والحياة تسير وفق نظام في غاية الدقة والإعجاز، قال تعالى : (وإية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ○ الشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ○ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ○ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا أليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون○).

كذلك الإنسان وهو يدخل ضمن مخلوقات الله تعالى بدءا ونهاية فردا وجماعة وأمة بل وأما في منظومة الوجود، فالكل خاضع لله، ويتحرك في نظام سنة الله، قال تعالى : (كل له قانتون○). وقد استضافت الآيات الكريمة في عرض قصة سيدنا آدم عليه السلام، بما يبين أهمية النظام للإنسان وأنه لا يمكن أن يجد النظام لفطرته إلا فيما جاء عن الله من الهدى، قال تعالى : (وإذ قلنا للملكية اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ○ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجتكما من الجنة فتشقى ○ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ○ وأنتك لا تظمؤا فيها ولا تضحى ○ فوسوس إليه الشيطان قال يأدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ○ فأكلا منها فبدت لهما سوء تهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى

○ ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى ○ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ○ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ○.

ثانيا : قصور العقلية البشرية

قد عرفنا أن العقل في الإسلام له منزلة عظيمة، وبه يتميز الإنسان عن كثير من مخلوقات الله، وقد أولى الإسلام العقل اهتماما بالغا وعناية كبيرة، وجاء في آيات كثيرة تنويه الإسلام بالعقل كقوله تعالى : (أفلا تعقلون، أفلا يعقلون) ونحوهما، فالعقل في الإسلام وسيلة إلى الإيمان، وبه يفهم الشرع وتكليفه وأحكامه وله مجالاته الواسعة التي سخرها الله تعالى للإنسان إلا أن العقل محدود بحدود طبيعية ومقيد بضوابط كثيرة، وبيان أوجه قصوره تتمثل فيما يلي :

١(قصوره من الناحية الزمانية، فالإنسان مهما نضج عقله، وبلغ من القوة منتهاها في إطاره الإنساني إلا أنه محدود بحدود زمنية وأخرى مكانية، لا يستطيع عقله تجاوزها أيا كانت عبقريته، أما الحدود الزمانية فعلى افتراض أن الإنسان علم بحاضره الذي يعيش فيه، وعلم شيئا عن الماضي بالدراسة والإطلاع فإنه لا يستطيع أن يدعي علم المستقبل، ومن الاستحالة على عقله علم ذلك، لهذا فإن النظام الذي تصدى لوضعه وتشريعه لو صلح على سبيل الافتراض فسيكون صلاحه في إطار فترة زمنية محدودة، وكفى هذا الوجه من قصور العقل من الناحية الزمنية قادحا في النظام الذي صدر عن عقل الإنسان.

٢(قصور العقل البشري من الناحية المكانية، حيث إن العقل الإنسان محدود بالمكان الذي يعيش فيه، والبيئة التي خضع لمؤثراتها بصفة مباشرة أو غير مباشرة، وما يؤدي إليه ذلك من محدودية العقل وتركيزه على بيئته ووجهه بالبيئات الأخرى، فإذا تصدى العقل البشري للتنظيم والتشريع فإن ما ينتج عنه لو صلح افتراضا لبيئة لن يصلح لغيرها.

٣(قصور العقل البشري من حيث الإلمام بجميع الأطراف التي يتصدى لتنظيمها وطبيعتها من ينظم لهم وتحقيق التوازن في ذلك كله، فالميل إلى طرف من الأطراف هي السمة الظاهرة على الفكر البشري، أو التركيز على جهة من الجهات، أو فكرة أو نزعة ونحو ذلك.

٤(جهل الإنسان بحقيقته، إذا كان الإنسان الذي هو موضوع التنظيم، أو الأساس في التنظيم لا يزول مجهولا عند نفسه فكيف يضع النظام ويلبى حاجاته ومتطلبات حياته بصفة شمولية متوازنة؟! إن جهل الإنسان بنفسه كان السبب الأساسي في اختلاف النظرات إليه وتعدد مدارسها وأفكارها.

لذا.. لا بد من إيضاح مبادئ الإسلام، ومفاهيمه، وقيمه، وأخلاقه، وأحكامه، ونظمه بأسلوب علمي شمولي مناسب، يؤدي إلى تحصين الاعتقاد الصحيح في مواجهة التيارات الفكرية الغازية وبث روح الاعتزاز بالإسلام وما يتعلق به.

المبحث الرابع :

حاجة المجتمعات إلى النظم الإسلامية

الحياة في المجتمعات البشرية لا يمكن أن تقوم على شكل سوي ووضع مرض إلا في ظل نظم تحدد الحقوق والواجبات، وتضع الحدود والعقوبات، وتملك قوة السيطرة على الأفراد والجماعات، لذا.. كانت المجتمعات ولا تزال في حاجة ماسة إلى نظم تنظم حركتها، وتكفل لها النجاح في خطواتها وتحقق لها السعادة الدائمة، الأمر الذي لا يتحقق إلا في ظلال النظم الإسلامية، وفيما يلي بيان ذلك :

١) إن البشر خلق الله تعالى، وهذا كما ورد في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى : (ولقد مكنكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معيشة قليلا ما تشكرون).

٢) تحتاج المجتمعات إلى النظم الإسلامية لأنها النظم التي لا تحتوي على قوانين وأحكام فقط، فهي النظم الموصولة بهدى العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة لله رب العالمين والخلق الإسلامي الرفيع.

٣) تحتاج المجتمعات إلى النظم الإسلامية لأنها نظم حاكمة ومربية وعامل التربية في هذه النظم نتيجة مباشرة لاتصال الأحكام بالعقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة لله والخلق الفاضل.

٤) تحتاج المجتمعات إلى النظم الإسلامية لأنها التي تملك إشاعة الأمن وتعميم الطمأنينة في نفوس الملتزمين بأحكامها والمطيقين لشريعته، قال تعالى : (الذين آمنوا وتطمئنون) ١
قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنون (القلوب).

٥) تحتاج المجتمعات إلى النظم الإسلامية لأنها نظم لا تعارض في تشريعاتها ولا تضارب، إنها النظم التي حصرت كل غايات البشر في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، كما حصرت أهداف الناس في هدف واحد هو تحقيق العبودية لله والتحرر من عبادة ما سواه، ويحسن بنا بل يكفيننا في هذا المقام أن نتبر قوله تعالى : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)

خلاصة القول : إن مرد احتياج المجتمعات إلى النظم الإسلامية وحدها راجع إلى ما تتمتع به من صلاحية ذاتية، وما ينتج عنها من آثار طيبة، وهذا هو جوهر الاختلاف بين النظم الإسلامية والوضعية.

الفصل الثاني

خصائص النظم الإسلامية

المبحث الأول : الربانية

من الخصائص التي تفرقت بها النظم الإسلامية من سائر النظم هي أنها نظم ربانية، والربانية تعنى انتسابها إلى رب العالمين، بدليل قوله تعالى : (ولكن كونوا ربنيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ○)، ومن ثم فهي نتاج العقيدة والشريعة الربانيين، وهي على هذا الاعتبار نظم ربانية.

وربانية النظم الإسلامية تسير في خطين رئيسين، هما :

١- ربانية المصدر والمنهج

٢- ربانية الغاية والوجهة

أولا : ربانية المصدر والمنهج

ربانية المصدر والمنهج تعني أن أسس هذه النظم ومبادئها تعتمد على الوحي المعصوم (القرآن والسنة) هذا الاعتماد يظهر آثاره في عدة أمور :

١- توحيد الوجهة، أي أن وجهة كل إنسان هي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وهذا كما ورد في القرآن الكريم : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين○).
٢- العصمة من التناقض، حيث إن البشر بطبيعتهم لا يتفقون بقدر ما يختلفون ويتناقضون، بل إن الشخص الواحد كثيرا ما يتناقض مع نفسه، ويتضارب آراءه من حين لآخر، فإذا كانت هذه طبيعة الإنسان البشرية مع نفسه ومصالحته، فأنى له إذا وضع منهجا لتسير عليه البشرية أن لا يتناقض هذا المنهج أو القانون مع بعضه بعضا مع مرور الزمان، ودوران المكان، واختلاف البيئات، وكما أن البقاء والدوام من صفات الإله الواحد، فكذا منهجه ودستوره باق ببقائه، ودائم بدوامه، لا يشوبه نقص لا يعتريه تبديل أو تغيير، وصدق من قال : (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون○).

٣- إضفاء القدسية وسهولة الانقياد، إن من طبائع البشر ألا يتقادون إلا لمن هو أعلى شأنًا، وأقوى جاها، وأعز سلطانًا، ويقل الانقياد، أو تنفي الطاعة لمن ساواهم أو داناهم، وحينما يسيطر على الإنسان الاعتقاد بربانية النظام المأمور باتباعه، ينقاد له طوعًا، ويدعن له رضا واختيارًا، ويقوم بتنفيذه تجيلًا وحبًا، وذلك لاعتقاده الجازم بكمال هذا النظام الرباني وإتقانه، قال تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون○).

٤- ربانية الغاية والوجهة، هي تعني أن الإسلام يجعل بناء الإنسان الصالح الذي يؤمن بالله تمام الإيمان، ليعمر المسجد ويصلحها تمام الصلاح، ليحقق الهدف الأسمى والغاية العليا من وجوده

وهي مرضاة الله تعالى في كل قول أو عمل يقوم به الإنسان. لذا، كان لربانية الغاية والوجهة ثمار يانعة تثمر في بستان حياة الإنسان، فتعمر دنياه، وتبارك آخرته، ومن هذه الثمرات :
أ) إدراك غاية الوجود البشري، قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ○).
ب) سلامة النفس من التمزق والصراع، قال تعالى : (الذين ءامنوا وتطمىن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمىن القلوب ○) وقال تعالى : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ○).

المبحث الثاني : الشمولية

ومن خصائص النظم الإسلامية التي تفرقت بها من سائر النظم هي أنها جاءت لكل مجالات حياة البشرية، وذلك لأن الإسلام جمع بين الحسنين، هما : (تكوين الفرد، وتكوين المجتمع).

أولاً : شمول النظم الإسلامية في تكوين الفرد

أما بالنسبة للفرد : فإن الإسلام جاء بالنظم لتراعي أموراً ثلاثاً :

- ١- قبل مولده، حيث أن الإسلام حث للناس بالزواج وحث على حسن اختياره فيه، وهذا كما قال تعالى : (وأنكحوا الأيمى منكم والصلحين من عبادكم وإماىكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله و سع عليم ○). وقال النبي ﷺ يؤكد هذا المعنى : (تنكحوا المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاطفر بذات الدين تربت يداك).
- ٢- أثناء حياته، حيث أن الله تعالى أمر الإنسان ألا ينسى نصيبه في الدنيا فيشكر بما أنعم الله عليه، وأحسن ما أحسن الله إليه، قال تعالى : (وابتغ فيما ءاتىك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) وقال تعالى : (فكلوا مما رزقكم الله حللاً طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ○).
- ٣- بعد مماته، هذا عندما رزق الله تعالى لهما بمولود صالح وسن لهما حسناً طيباً كما رسم أبوه وأمه الطرق النموذجية لتربية أبنائهما من قبل، وحينما تدور الحياة فيشب الأبناء ليستعدوا لتكوين أسرة جديدة صارت النظم الإسلامية معهما كما صارت مع آبائهم، فإذا ما أتى الأجل المحتوم للإنسان صارت النظم الإسلامية معه فأوجبت غسله، وتكفينه، ودفنه، وسداد ديونه، وتوزيع ما تركه أبوه بأنصبتها المفصلة في القرآن والسنة، ثم الدعاء له.

شمول النظم الإسلامية في تكوين المجتمع

كما شملت النظم الإسلامية الفرد في حياته الشخصية، كذلك شملته في حياته المجتمعية من كافة نواحيها، الإجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والقضائية، والحربية، وهذا قد ذكر في القرآن الكريم حيث أن الله تعالى يقول إجمالاً : (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ○).

المبحث الثالث : الواقعية

تقف الواقعية كخصيصة من خصائص النظم الإسلامية، والواقعية في مفهوم الإسلام تعني مناسبة النظم الإسلامية لواقع وظروف الحياة البشرية، ولقد تجلت مظاهر الواقعية في شتى النظم الإسلامية، منها : العقائدية، والعبادية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والإدارية، والقضائية، والتعليمية، وذلك لأن القرآن الكريم الذي يعتبر مصدر الأول للنظم الإسلامية تبيان لكل شيء، يدل على قوله تعالى : (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَىٰ هِمِّ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۗ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۗ وَنَزَّلْنَا آلَ كُتَيْبٍ شَيْءٌ وَهَدَىٰ وَبَشَّرْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ كَ...)

وهنا سوف أشرح كل واحد منها إجمالاً :

أولاً : واقعية النظام العقائدي

قد عرفنا أن العقائد الإسلامية تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهي : الإلهيات، والنبوات، والسمعيات، فالإلهيات تبنيها عن طبيعة الإله الذي نعبد، والنبوات عن طبائع وصفات الرسل الذين نؤمن بهم، والسمعيات تحدثنا عن كل ما غاب عنا، وفي كل هذه الأقسام نجد أنها قد اتسمت بالواقعية. ففي جانب الإلهيات نجد الواقعية واضحة جلية، حيث إنها تدعو إلى إله واحد، وأن الله تعالى قد دل على نفسه بآياته الإنسانية، فقال تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)، وآياته الكونية، فقال تعالى : (سنبرهنك آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)، أما في الجانب النبوات فإن الواقعية تتضح بجلاء في بشرية الرسل والأنبياء فهم مثلنا، لا يتميزون عنا إلا بالوحي وكمال الخلق، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وقال تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم)، وأما في الجانب السمعيات نجدها واضحة جلية في قوله تعالى : (أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكتفين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا)

ثانيا : واقعية النظام العبادي

تتجلى الواقعية في نظام العبادة في الإسلامي في العديد من المظاهر، والتي من أهمها :
- الجمع بين الفدرات البدنية والتطلعات الروحية، مثل : الصلاة والصوم والحج.
- عدم تكليف الإنسان ما لا يطيق، قال تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون).

ثالثا : واقعية النظام الاجتماعي

وقد سبق هذا الكلام في خصيصة الشمولية، انظر ص ١٠ من هذه الخلاصة. رابعا :

واقعية النظام السياسي

لم تقم سياسة النبي ﷺ وصحابته وأتباعه من بعده في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها على الشعارات والخطب، ولكنها كانت سياسة واقعية تطبق ما تقول، فالنظام السياسي الإسلامي نظام واقعي لا يظل حبيس الفكرة والنظرية بل يخرج إلى أرض الواقع والتطبيق، فواقع المسلمين يعكس طبيعة النظام السياسي الإسلامي، وبينته تحدد أهدافه، ووقته يشكل لونه، ومن هذا المنطلق يجب التأكيد على عدة أمور حتى يتحقق المفهوم السياسي الإسلامي :

١- التأكيد على أن الواقعية السياسية لا تعني بأي حال من الأحوال الاستسلام والخضوع. ٢-

التأكيد على أن الواقعية السياسية لا تعني الانتهازية بمعنى أن الغاية تبرر الوسيلة.

٣- التأكيد على أن الواقعية السياسية لا تعني البراغماتية التي تقول بأن كل ما يجلب المنفعة فهو حق وصحيح مهما كانت الوسائل.

٤- التأكيد على أن الواقعية السياسية لا تعني المثالية التي تؤمن بالقانون والأخلاق وأن الضمير

الإنساني هو الحكم الأعلى في كل القضايا الأخلاقية، بل واقعية تترك قصور الإنسان ولكنها

تحاول تقربه من خلال السياسة الشرعية للصلاح.

كما نزل النظام السياسي في الإسلام على أرض الواقع في التعامل مع المحيطين به من غير المسلمين يهوديا كان أو نصارى أو مشركين، أما اليهود فقد كتب معهم النبي ﷺ أول وثيقة معاهدة تتضمن الحقوق والواجبات بين الطرفين، فلما نكثوا بالعهد ونقضوها حاربهم وأجلاهم من المدينة بناء على بنود هذه المعاهدة، وأما النصارى فقد أحسن وفادتهم، والحوار معهم، وما آية المباهلة إلا دليلا على ذلك، وأما المشركين فقد عقد معهم صلح الحديبية وهادنهم، ثم التفت إلى العالم من حوله فأرسل الكتب إلى الملوك والرؤساء في العام التاسع للهجرة يدعوهم فيها إلى عبادة الله وحده، ومدى الأيدي للتعايش السلمي، وعلى هذه الأسس سار الخلفاء الراشدون، والحكام العادلون من بعده.

خامسا : واقعية النظام الاقتصادي

تتجلى واقعية النظام الاقتصادي في قوله تعالى : (الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربوا وأحل الله البيع وحرم الربوا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ○) حيث أن الله تعالى حلل فيها رغبات الناس ومتطلباتهم النفسية في حب التملك فاعترف بالملكية الخاصة وأقرها، وحرم كلما فيه ضرر وخاسرة للناس كالربا والاحتكار والتدليس وغير ذلك.

المبحث الرابع : العالمية والعموم

ليست النظم الإسلامية نظما محلية (زمنيا أو مكانا) وإنما هي نظم عمومية عالمية، بمعنى أنها جاءت رحمة للعالمين، ونورا للخلق أجمعين، يستضيئون بضئها، ويسيرونها في رحابها. وأقوى دليل على هذه العالمية هو وجود سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ حيث جاء بالقرآن المتين فصار رحمة للعالمين وهدى للناس أجمعين، وكان كل الدعوات النبوة

السابقة على دعوة رسول الله ﷺ كانت مؤقتة بزمانها، ومرتبطة بمكانها، وخاصة لمن شهدها من الناس، بدليل قوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)، أما دعوة الإسلام فقد كان الأمر مختلفا، حيث إنها جبت كل الرسالات من قبلها، قال النبي ﷺ في رواية الإمام مسلم : "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة". وقد أكد القرآن الكريم كلام الله ما قاله حبيب الله، حيث قال الله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ○)، أليس هذا يدلنا على عالمية النظم الإسلامية؟!

المبحث الخامس : الثبات والتطور

إن العقل يقرر أن الكون يتألف من محاور ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، ومن مظاهر أو نسج متبدلة متطورة، ولا بد أن يقابل الثابت من حقائق الكون بثبات من النظم والمبادئ، وأن يقابل المتطور منه بمتطور من تلك النظم نفسها، ولا ريب أن النظم الإسلامية وافية بما يقرره العقل الإنساني أتم الوفاء، ففيها :

الأول : أحكام ومبادئ ثابتة، لأنها ذات صلة مباشرة بمحاور كونية ثابتة لا تبدل، نجد منها :
١) العقائد، والمقصود بها أركان الإيمان الخمس المذكورة في قوله تعالى : (ومن يكفر بالله وملئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضللا بعيدا ○)
٢) العبادات، والمقصود بها الأركان العملية الخمس من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا.
٣) المحرمات اليقينية، وهي الأمور التي حرمها الشرع تحريما قاطعا كالسحر، وقتل النفس، والربا، وأكل مال اليتيم وغير ذلك.
٤) أمهات الفضائل من الصدق والأمانة والعفة والصبر والوفاء بالعهد والحياء وغيرها.
٥) أسس شرائع الإسلام القطعية مما انتظمت به حياة الناس، كنظام الأسرة، ونظام الإرث وغير ذلك.

الثاني : أحكام وفروع كثيرة هي عرضة للتطور والتغيير، لأنها منوطة بنسج ووقائع كونية متطورة، وهو القسم القابل للتطور، فهو أوسع دائرة من القسم الأول، حيث يعنى بالفروع والجزيات، فنجد منها :

١) وسائل العبادات، خذ المثال في أداء الحج، وهو واجب في أصله، ولكن وسائله تطورت وتبدلت فمن الجمال والفرسان إلى القطارات والسيارات إلى السفن والطائرات.
٢) التطبيق العملي للمبادئ الأساسية في النظم الإسلامية، فكما هو معلوم أن أسس النظم الإسلامية من الثوابت التي لا تتغير، أما طرق تطبيقها في واقع الناس فهذا أمر يتاح فيه الاجتهاد والابتكار.

المبحث السادس : الجمع بين الجزاء الديني والأخروي

ومن خصائص التي تتميز بها النظم الإسلامية من غيرها من النظم الوضعية التي وضع فيها الإنسان من قوانين ومبادئ هي خصيصة الجمع بين الجزاء الديني والأخروي، حيث إن الإسلام كنظام فإنه ربي في أتباعه ملكة يتميزون بها عن غيرهم من أتباع النظم الوضعية

البشرية، وهي ملكة الوازع الديني، والخوف من العقاب الأخروي قبل العقاب في الدنيوي، ومن هنا يمكن أن نفهم السبب الرئيس في ندرة الجريمة في عصر النبوة والخلفاء الراشدين وفي كل عصر ومصر تمكن فيه المسلمون من إقامة وتطبيق الشريعة الإسلامية.

الفصل الثالث

مصادر النظم الإسلامية

المبحث الأول : المصادر الأصلية المتفق عليها

أولا : القرآن الكريم

إن القرآن الكريم يعد مصدر الأول من مصادر النظم الإسلامية، حيث إن القرآن الكريم يحتوي كل شيء يحتاج إليه الناس من العقائدية، والعبادية، والأخلاقية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والتعليمية والقضائية وغير ذلك، بدليل قوله تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٥) فهو كتاب الله تعالى المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته، المتحدي بأقصر سورة من سوره، وهو الكتاب الذي أنزل على عبده ليكون رحمة للعالمين، يعنى لما نزل القرآن على قلبه صار رحمة للعالمين وهدى للناس أجمعين، بدليل قوله تعالى : (الرحمن) (٥) علم القرآن (٥) خلق الإنسان (٥) علمه البيان (٥) وقال تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) (٥).

من هنا لن أقف مع القرآن الكريم لأتناوله من خلال الزوايا التي تناولها علماء علوم القرآن من حيث بيان حجته، وتواتره، ونزوله منجما، وإنما سأقف هنا لأجل كون القرآن الكريم مصدرا رئيسا من مصادر النظم الإسلامية، والبيان على ذلك ما يلي :

١) النظام الاقتصادي، قال تعالى : (فإذا قضيت الصلوة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) (٥) أي في هذه الآية أمر الله المسلمين بالانتشار بعد قيامهم بأداء ما فرض عليهم من شعائر تعبدية لا تستغرق سوى دقائق، فهذه دلالة على أن الله تعالى وضع القواعد الاقتصادية في حياة الإنسان.

٢) النظام الإجتماعي، قال تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزوا جا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (٥).

٣) النظام السياسي، قال تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) (٥).

٤) النظام العبادي، قال تعالى : (فإذا قضيت الصلوة فاذكروا الله قياما وقيودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأنتم فأقيموا الصلوة إن الصلوة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا).

٥) النظام العقائدي، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون).

٦) النظام الأخلاقي، قال تعالى : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين).

ثانيا : السنة النبوية الشريفة

إن السنة النبوية الشريفة لها منزلة عالية في الإسلام، لأنها الأصل الثاني من أصول الإسلام يجب الأخذ بها والاعتماد عليها بعد القرآن الكريم، فالقرآن الكريم لا يستغني عن السنة النبوية الشريفة رغم أنه مصدر الأول في الإسلام، لأن السنة النبوية الشريفة شارحة ومبينة لما في القرآن الكريم، ومن جردها أو أنكرها أو زعم أنه يجوز الإعراض عنها والاكتفاء بالقرآن فقط فقد ضل ضلالا بعيدا، لأن الله تعالى قد أمر بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) واتباع ما جاء به، قال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) وسمي كلامه وحيا، بدليل قوله تعالى : (والنجم إذا هوى ○ ما ضل صاحبكم وما غوى ○ وما ينطق عن الهوى ○ إن هو إلا وحي يوحى).

من هنا، كما ذكرت لكم خلال الحديث عن المصدر الأول للنظم الإسلامية عدادا من الآيات الدالة على كل نظام من نظم الإسلام المتعددة، سوف أسوق لك هنا أيضا عن كل نظام تحت عناية السنة النبوية الشريفة، وإليك الأمثلة :

١) النظام الاقتصادي، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء".

٢) النظام الاجتماعي، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الْإِطْرَقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بَدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا

الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا : وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ : عَ شُصِ الْبَصْرِ وَكَذُفِ الْأَذَى وَرُدِّ السَّلَامُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ".

٣) النظام القضائي، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر".

ثالثا : الإجماع

الإجماع هو : اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية في عصر من العصور على حكم شرعي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد مثل الإجماع مصدرا أصيلا من مصادر النظم الإسلامية، ومن أمثلة ذلك في النظام الاقتصادي : إجماع الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعي الزكاة من قبل ولي الأمر.

رابعا : القياس

القياس : هو أحاق ما لم يرد فيه نص على حكمه بما ورد فيه نص على حكمه في الحكم، لاشتراكهما في علة ذلك الحكم.

ومن أمثلة القياس في النظام الاقتصادي : قياس الأوراق النقدية المتداولة الآن كالريال والجنهية والدولار على العملة النقدية التي وجدت في عهد النبوة، وهي الدرهم الفضي والدينار الذهبي، وذلك بجامع أن العلة واحدة وهي الثمنية، ومن ثم يأخذ الفرع المقيس أحكام المقيس عليه في وجوب الزكاة فيه.

المبحث الثالث : المصادر الفرعية للنظم الإسلامية

الأول : التراث الإسلامي

تعريف التراث لغة

كلمة التراث في اللغة العربية تعني الميراث، وهو يشمل المال والأحساب، وقد ورد في القرآن الكريم للدلالة على الميراث الديني، والثقافي، والمادي، قال تعالى : (وتأكلون التراث أكلا لما).

تعريف التراث الإسلامي في الاصطلاح

لقد اختلف العلماء حول مصطلح التراث اختلافا كثيرا حسب الزاوية التي نظر منها كل واحد منهم، ولكن هنا لا نريد أن نطاول الكلام في هذا المجال ويكفي لنا ذكر هذا التعريف الجامع المانع، وهو : أن التراث هو كل ما أثر عن علماء المسلمين المنتقلين مكتوبا، أو مسموعا، أو مشاهدا، وصحيح النسبة إليهم في مجالات العلوم المختلفة.

الثاني : التراث الإنساني

ويقصد بالتراث الإنساني كل ما أنتجته القريحة البشرية من فنون وأداب وعلوم، منها : ما يتفق ومنطق العقل، وصحيح العلم، ومنها : ما يتناكر ويختلف مع مسكة العقل وقوانين المنطق، ودور العالم المسلم في التعامل مع هذا التراث الإنساني يرتكز على قبول السليم، منه : وفق الضوابط والمناهج العلمية المعترف بها، وترك ما يتناكر مع الحقائق والثوابت التي لا يختلف عليها العلماء.

الفصل الخامس أهداف النظم الإسلامية

إن النظم الإسلامية لها أهداف التي تسعى لتحقيقها في حياة الإنسان، وتلك الأهداف الشريفة التي تبرز ذاتية النظم الإسلامية المباركة، منها :

المبحث الأول : سعادة الفرد والأسرة

من أهم أهداف النظم الإسلامية تحقيق سعادة الفرد والأسرة، إذ أن هذه النظم صادرة عن الوحي الإلهي المنزل من قبل الخالق الخلق، ومن ثم فإن النظم الإسلامية تهدف إلى تحقيق سعادة الفرد والأسرة على النحو التالي :

أولاً : سعادة الفرد المسلم

إن النظم الإسلامية تربي أتباعه بمبادئها على الاستسلام الكامل والخضوع التام لله تعالى في كل أحواله، بدليل قوله تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ۝ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).

ولا شك أن المسلم حين يلقي بكليته إلى ربه تعالى يدخل تحت ظلال معيته، حيث يقول تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أي معهم بتأييده ونصره ومعونته، وهذه معية خاصة للمؤمنين من عباده، كقوله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ...) ولا يخفى أن من دخل في معية الله تعالى أحاطه ربه بحفظه، حيث يقول الله تعالى : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، ولا يخفى أن سعادة الفرد تمكن في تطبيق ذلك المنهج الإسلامي، وتجسيده واقعا عمليا في هذه الحياة، قال تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ...)

ثانياً : سعادة الأسرة المسلمة

تحرص النظم الإسلامية على سعادة الأسرة من خلال تأسيسها على منح يكفل هذه السعادة، وهذا المنهج يقوم على توعية كل فرد من أفراد الأسرة بما له من حقوق وما عليه من واجبات في إطار الأسرة، ولضمان سعادة الأسرة المسلمة فصلت النظم الإسلامية الحقوق في إطار الأسرة على النحو التالي :

١) الحقوق الزوجية، فيها حقوق الزوج على زوجته، وحقوق الزوجة على زوجها، وحقوق مشتركة بينهما، وسأفرد كل واحد منها مطلباً خاصاً فيما يلي :

مطلب الأول : حقوق المشتركة

وهي حقوق الزوجين معا في الوقت نفسه، فأهمها ما يلي :

- ١- حق الاستمتاع باستجابة لداعي الفطرة، قال تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون ۝ لا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين).
- ٢- المعاشرة بالمعروف، قال تعالى : (وعاشروهن بالمعروف).

٣- التوارث، قال تعالى : (ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن من بعد وصية توصون بها أو دين ...).
٤- المعاونة في تربية الأولاد تربية إسلامية.

مطلب الثاني : حقوق الزوج على زوجته

١- طاعته بالمعروف، لأن القوامة له، قال تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ...) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)
٢- ألا تأذن لأحد في بيته إلا بإذنه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه)
٣- المحافظة على مال زوجها، فلا تتصرف في ماله إلا بإذنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يجوز لامرأة عطية، إلا بإذن زوجها).
٤- القيام بشئون البيت الداخلية من تجهيز الطعام، وتنظيف لباس، وترتيب مكان وغير ذلك.

مطلب الثالث : حقوق الزوجة على زوجها

١- الصداق أي المال الذي يقدمه الزوج حقا للزوجة، قال تعالى : (وأتوا النساء صدقاتهن نحلة)
٢- النفقة أي ما تحتاج إليه من طعام وكسوة ومسكن وكل ما يلزمها بالمعروف، قال تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته).
٣- العدل بينها وبين غيرها في حال تعدد الزوجات، حيث إن من حق الزوج أن يتزوج أكثر من واحدة إلى حد أربع زوجات.

٢) الحقوق بين الأبناء والآباء، فيها حقوق للأبناء على آبائهم، وحقوق للآباء على أبنائهم، وحقوق مشتركة بينهما، وسأفرد كل واحد منها مطلباً خاصاً فيما يلي :

مطلب الأول : حقوق المشتركة

حق التوارث، لقوله تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ... إلى قوله تعالى ... إن الله كان عليماً حكيماً ○).

مطلب الثاني : حقوق الأبناء على الآبين

١) حق النسب، ويتحقق ذلك من حسن اختيار كل من الزوجين للآخر، ثم إتمام الزواج الشرعي، ثم نسبة المولود إلى أبيه.
٢) التسمية بالاسم الحسن، فقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى خير الأسماء يحبها الله تعالى، حيث قال : (أحب الأسماء إلى الله تعالى : عبد الله وعبد الرحمن).
٣) حق الرضاة، لقوله تعالى : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاة).

٤) حق النفقة، قال تعالى : (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف). ٥) العدل بينهم في العطية.

مطلب الثالث : حقوق الآبين على الأبناء

١) الإحسان بهما، قال تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً).
٢) طاعتها، قال تعالى : (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً).

- ٣) عدم الإساءة إليهما، قال تعالى : (... فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واحفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) .
٤) الإنفاق عليهما، قال تعالى : (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين ...) .

المبحث الثاني : استقرار المجتمع

ومن أهم أهداف النظم الإسلامية استقرار المجتمع، وهذا لا يتحقق إلا من خلال تجسيد نظم الإسلام واقعا عمليا في حياة المجتمع، وذلك حيث إن تطبيق النظم الإسلامية في شتى مجالات الحياة من شأنه أن يثمر حصول الاستقرار بكل صورته في المجتمع.
ولا يخفى أن الاستقرار النفسي لا يتحقق للإنسان إلا بالإيمان بالله عز وجل وحسن الصلة به، قال تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ، وقال تعالى : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) حقيقة الطمأنينة السكون والاستقرار.

والحق أن تطبيق نظم الإسلام يوجد المجتمع الآمن المستقر، وذلك حيث إن معظم قلق الناس في هذه الحياة يرجع إلى قضيبي الرزق والأجل، وهما قضيتان قد حسم أمرهما لدى المجتمع المسلم الذي يطبق نظم الإسلام وملؤه اليقين بأن الله تعالى لم يجعل لأحد سواه سبيلا على رزق أحد أو سلطانا على أجله، ففي شأن الرزق قال تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها...) وفي شأن الأجل قال تعالى : (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا...)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فقال : "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف).

المبحث الثالث : السلام العالمي

ومن أهداف النظم الإسلامية هي السلام العالمي، وهو عين ما جاء به الإسلام ليغير حال البشر في كل العالم، ومن أجل تحقيق هذا الهدف السامي انطلقت النظم الإسلامية من نقطة عقلانية غاية في الأهمية هي إيمانها بأن المسلمين لن يستطيعوا نشر السلام في العالم إذا فقدوه بينهم، لذا عمدت النظم الإسلامية إلى تحقيق السلم بين المسلمين، ثم عملت على تصدير هذا السلام إلى العالم :

أولا : نشر السلام الخاص بين المسلمين

وهذا كان تجلّى في أول عمل قام به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه عند قدومه المدينة مهاجرا إليها من مكة المكرمة هو بناء المسجد النبوي والدار الذي يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم قام ببناء مركز التجمع والتآلف والسلام والطمأنينة ليزيد التآلف ويفعل السلام بين المسلمين، وهو عقد المؤاخاة بينهم، وذلك حيث قال الله تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَةِ إِخْوَانِكُمْ...) ومعنى هذا الإخاء : أن تذوب عصبية الجاهلية فلا حمية إلا للإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بتقواه.

ثانيا : نشر السلام العام الذي يعم العالم كله

إن النظم الإسلامية عملت علي نشر السلام بين البشر جميعا - مسلما وغير مسلمين، حيث تعاملت مع البشر جميعا على أساس "الوحدة الإنسانية"، فالإنسانية كلها في نظر النظم الإسلامية جاءت من نفس واحدة، بدليل قوله تعالى : (يَأْرِبِهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...).

ومن ثم جعلت النظم الإسلامية علاقة المسلمين مع بني جنسهم من غير المسلمين مبنية على السلام، قال تعالى : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم مودة، والله قدير والله غفور رحيم ○ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين ○ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون○).

وكما يأمر الإسلام المسلمين بالجنوح إلى السلام إذا جنح الأعداء، حيث قال تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله...) وحتى في أثناء الحرب، إذا كف العدو عن القتال فيجب أن يكف عنه المسلمون فورا، قال تعالى : (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلا○) وبناء على هذا الأصل العظيم قامت علاقات الأمة الإسلامية مع الأمم الأخرى على أساس السلام، ومن ثم يتقرر أن الأصل في العلاقات المسلمين بغيرهم من الأمم هو السلام، وأن الحرب هي الاستثناء الذي لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى، إذن فالإسلام دين السلام، واسمه نفسه مشتق من السلام.

المبحث الرابع : تحقيق مصالح العباد

ومن أهم أهداف النظم الإسلامية تحقيق مصالح العباد ودرء الفساد في العاجل والآجل على حد سواء، وذلك بكفالة ضروريات العباد، وتوفير حاجياتهم وتحسينياتهم، لأن مصالح العباد تتكون من هذه الأمور الثلاثة، فإذا توفرت لهم فقد تحققت مصالحهم، وسأفرد كل واحد منها مطلبا خاصا فيما يلي :

مطلب الأول : الأمور الضرورية

والأمور الضرورية التي يراد بها شرعا : "ما تقوم عليه حياة الناس ولا بد منه لاستقامة مصالحهم، وإذا فقد اختل نظام حياتهم، ولم تستقم مصالحهم، وعمت فيهم الفوضى والمفاسد". ومجموع الأمور الضرورية للعباد بهذا المعنى ترجع إلى حفظ خمسة أشياء، وهي : الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وقد أفاض بعض العلماء إلى هذه الخمسة عنصرا سادسا، وهو : حفظ العرض وهو الكرامة والسمعة.

١) الدين، وهو أهم الضروريات على الإطلاق، ومن ثم فهو مقدم على جميع مصالح الأخرى، حيث إن صاحب الدين يقدم نفسه وماله فداءً لدينه، لينال بذلك سلعة الله الغالية وهي الجنة، ولذا فإن من أول أهداف النظم الإسلامية إيجاد حفظ الدين الذي هو أول المصالح الضرورية للعباد.

٢) النفس، وهي تأتي بعد الدين أي ما يتعلق بالنفس : الحياة التي أعلى الدين من شأنها، وحرمة أشد التحريم العدوان عليها، حيث قرر في القرآن الكريم : (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا...).

٣) العقل، ثم تأتي بعدها المحافظة على العقل الذي يتميز الإنسان به، وأول درجات المحافظة على العقل أن تتم تغذيته بالعلوم والمعارف الصحيحة النافعة، لذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين طلب العلم، بقوله : "طلب العلم فريضة على كل مسلم". ثم تأتي الدرجة الثانية للمحافظة على العقل وهي ما شرعه الإسلام من تحريم الخمر وكل مسكر وعقاب من يشربها، ومن ثم يقرر النظم الإسلامية تهدف إلى بناء العقل الواعي وتعمل على حفظه من كل ما يفسده.

٤) النسل، ثم تأتي بعد ذلك المحافظة على النسل أي على الأجيال الناشئة حتى يستمر بقاء النوع الإنساني، ولهذا شرع الله تعالى الزواج تحقيقاً لهذا الهدف وأوجب على الآباء والأمهات رعاية الأولاد، وأمر المجتمع برعاية اليتامى حتى لا ينسأهم المجتمع أو يغفل عنهم حين ينشغل كل امرئ بنفسه وبأولاده.

٥) المال، ثم تأتي بعد ذلك المحافظة على المال وهو عصب الحياة كما ورد في القرآن الكريم : (التي جعل الله لكم قياماً) أي لمعايشكم وصلاح دينكم، ومن ثم شرع لحفظه وحمايته : تحريم السرقة، وحد السارق والسارقة، لقوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله، والله عزيز حكيم).^(٥)

٦) العرض، يأتي بعد ذلك المحافظة على العرض، حيث شرع الإسلام لحفظه من خلال حد الزاني والزانية والقاذف، ومن هذا كله يتبين أن الإسلام شرع أحكاماً كثيرة تقصد إلى كفالة الضروريات للعباد إيجاداً وحفظاً.

مطلب الثاني : الأمور الحاجية

والأمور الحاجية التي يراد بها شرعاً : "ما يحتاج إليه الناس لليسر والسعة، وإذا فقد لا يختل نظام حياتهم، ولا تعم فيهم الفوضى كما إذا فقد الأمر الضروري، ولكن ينالهم الحرج والضيق.

مطلب الثالث : الأمور التحسينية

والأمور التحسينية التي يراد بها شرعاً : "ما يقتضيه المروءة والآداب وسير الأمور على أقوم منهاج، وإذا فقد لا يختل نظام حياة الناس كما إذا فقد الأمر الضروري، ولا ينالهم حرج كما إذا فقد الأمر الحاجي، وكن تكون حياتهم مستنكرة في تقدير العقول الراجحة والفترة السليمة.

وبمراعاة المصالح التحسينية إلى جانب المصالح الضرورية والمصالح الحاجية تكتمل كفالة النظم الإسلامية لمصالح الناس إيجاداً وحفظاً.

المبحث الخامس : نشر رسالة الإسلام

ومن أهم أهداف النظم الإسلامية نشر رسالة الإسلام العالمية، وتبليغ دعوته العامة إلى جميع البشر، فليس هدف النظم الإسلامية أن تحكم وأن تسيطر، وإنما هدفها أن تهدي الناس إلى طريق الله رب العالمين، وذلك حيث أن النظم الإسلامية "نظم هداية" أي أن أكبر همها : نشر دعوتها في العالمين، وتوصيل رسالتها إلى كل مكان، فهي رحمة الله إلى الناس كافة لأن الناس جميعا في حكمها "إخوة" وأصلهم واحد، وأبوهم واحد، ونسبهم واحد، لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح، فلا مجال في رسالة الإسلام لتقسيم الجنس البشري إلى طبقات حسب الأجناس أو الألوان، وهذا كما قال تعالى في الكريم : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم...)

ومن ثم على تلك الأمة أن توصل هذه الرسالة إلى العالم كله، لأن هناك ملايين من البشر لا يكادون يعرفون عن دين الله الإسلام شيئا.